بقلم حضرة القس عبد المسيح زهر

لا ريب في ان النفس العاقلة ، التي تميّز الانسان عن البهيمة العجماء ، لا يمكنها ان تصدر عن حيوان مهما كان نوعه ومشابهته للانسان في بعض الظواهر ؛ لان لا احد يعطي ما لا يملك . وبالرغم من هذا المبدأ الثابت الصحيح ما زال بعض ادعياء العلم يذهبون الى ان الانسان بالنسبة الى جسده ، اي من حيث انه من ذوات الاثداء ، هو الحلقة الاخيرة من سلسلة طويلة متلاحمة الاجزاء تجمعها قرابة شابكة . على ان من الفلاسفة اهل المعاني مَن يسلّم بان النفس البشرية صادرة عن الله سبحانه وتعالى ؛ ولكنّهم يتساءلون عمّا اذا كان الجسد ممكناً صدوره عن جسم بعض الحيوان . الّا ان العلم الحديث والاختبارات الطويلة ، ولاسيما اختبارات العلامة پاستور ، لم تدع سبيلًا لاعتقاد التناسل الابتدائي ؛ فكان من نتائجها في عصرنا الحاضر نسف وقلع ذلك الصرح الذي تعب وجدّ في تشييده ومعالاته دروين ولامرك زمناً مديداً ، حتى انهُ لم يبقَ اليوم من يعتقد صحة تلك المبادي الواهية .

ان الكتاب المقدس يشير في صفحته الاولى الى ان جميع البشر المنتشرين في اربعة اقطار البسيطة ، على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم والوانهم وقدودهم وتراكيبهم ، متسلسلون من آدم وحواء . وقد جهد كثير من اعداء الدين انفسهم ، وحاولوا نقض قول الكتاب ، واقامة الدليل على ان البشر ليس اصلهم واحداً ، بل هم انواع كثيرة صادرة عن اصول متعدّدة . ويذهبون الى تصحيح دعواهم بوجود الانسان منذ القديم في بلاد متباعدة الاطراف ؛ فلو كان ، على زعمهم ،

الاصل واحداً لما اتصلت الفروع الى تلك الارجاء القاصية ، واختلفت شعورهم ورؤوسهم والوانهم وقاماتهم كل هذا الاختلاف .

من المعلوم ان السُلالات البشرية المنتشرة اليوم في الارض ترجع الى اربع : البيضاء ، والسوداء ، والحمراء ، والصفراء ، كما رتبها الجغرافيون . فالبيض يسكنون اوربة ، والسود افريقية ، والحمر اميركة ، والصفر آسية . وينقسم البشر بالنسبة الى الشعور الى قسمين : اصحاب الشعور السبطة ، واصحاب الشعور المفلفلة اي الجعدة . فالشعر الجعد يوجد في كل مكان تقريباً ، في اوسترالية وملازية واميركة والبلاد القطبية[1] . ثم ان اصحاب الشعور السبطة يختلفون ايضاً في ظواهرهم اختلاف اصحاب الشعور الجعدة . فكيف يُؤوَّل هذا الاختلاف مع تشابه الشعر ؟

اما بالنظر الى الراس وتكوينه فينقسم البشر الى ثلاثة اقسام : قسم منهم مسطح العارض ، طويل الوجه ، كالانسان القفقاسيّ ؛ وقسم ناتئ اللحيين كالانسان « الموتنتو » اعني سكّان رأس الرجاء الصالح ومن جاورهم ؛ وقسم عريض الوجه ، ناتئ الوجنتين كالانسان المغولي[2] . فهذه الفروق ، اذا امعنّا النظر جيداً ، وجدناها في كل مكان بين اهلنا واصحابنا ، وفي اوربة وآسية وافريقية . هذا وان الجماجم تختلف ايضاً في الطول والقصر ، وذلك لان البلاد والهواء والعادات والمعيشة تؤثر جداً في تركيب الانسان الطبيعي وجبلته ورجبه . واليك شهادة اوردها پريشار قال : « منذ قرنين ازعج الساسة البرابرة عدداً كبيراً من الايرلنديين من كونتيّتي انتريم ( Antrim ) ودون ( Down ) ، ونفوهم من بلادهم الى شواطئ البحر فسكنوها واقاموا في شظف العيش . فاليوم يبين في وجوههم ملامح تبذّأها النواظر ، وذلك ان لحيهم صارت ناتئة ينفتح فيها فم كبير ، وانوفهم اصبحت فطساً ، ووجناتهم بارزة ، وسيقانهم متقوّسة ، وقاماتهم قصيرة . فبهذه العلامات ، وبهذه القضافة والنحافة تعرف الشعوب العائشة في الشظف ، كما يُرى ذلك في البوشيين — سكان افريقية

(١) Abbé Moreux : *Qui sommes-nous ? p. 13*

(٢) Abbé Moreux: *Op cit. p. 14*

الجنوبية — وسكان ارض النار ، وهولندة الجديدة الاصليين.»

فما هو سبب هذه الفروق ؟ ولم الاوربي ابيض ، والاميركي نحاسي ، والصيني اصفر ، والزنجي اسود ؟ وهل هذه الظواهر عرضيَّة زائلة ، ام جوهرية ثابتة ملازمة لكل افراد هذه السُلالات الاربع ؟ وهل كلهم متسلسلون من اب واحد وام واحدة ، ام من آباء كثيرين وامهات متعددات ؟

لا بد قبل الجواب من تحديد النوع . فالنوع جماعة اشخاص متشابهين تقريباً ، منسولين على التلاحق من ابوين اولين . فحسب رأى اصحاب مذهب النشوء ، ليست الانواع جماعات ثابتة متباينة ، بل اشكال متباعدة عن اصلها الاول ، لكنها كلها صادرة عن اصل عام . على ان هذا الرأي بيّن الفساد مما قدّمناه في موضع آخر . فلننظر الآن اذا كان فرق جوهري بين البيض والسود يمنع نسبتهم الى اصل واحد.

اننا اذا نظرنا الى السُلالات البشرية المنتشرة فوق سطح الارض ، رأينا العلامات المختصة بسُلالة موجودة في غيرها ، ولهذا السبب لا ينتج من اختلاف الالوان والملامح ، ونتوء الوجنة ، وكبر الرأس وصغره ، وطول الجمجمة وقصرها ، وسبوطة الشعر وجعودته ، تعدّد في السُلالات ؛ اذ انهُ من الصعب ، بل من المستحيل ، وجود سُلالة متميّزة كل التميّز عن غيرها . والدليل على ذلك انك لو جمعت اتفاقاً مائة الف رجل مثلاً او اكثر ، ثم فرزت البيض من السود والحمر من الصفر ، وجعلت كل فصيلة مع فصيلتها ، وتأملت جيداً تركيب رؤوسهم وعوارضهم ووجوههم ووجناتهم ولحيتهم وجماجمهم ، لرأيت فرقاً عظيماً بين افراد السُلالة الواحدة ؛ اذ استدارة الرأس واستطالته تشملان السُلالات الاربع . فهذه الاعراض لم تحدث ولا ريب دفعة واحدة ، بل على التوالي وطول المدة . ولو كان البشر منسولين من آباء وامهات شتى لما صح ذلك فيهم ، ولكانوا ورثوا عن آبائهم بعض العلامات التي من شأنها ان تميّزهم عن غيرهم . .

اما اختلاف الالوان فسببه في الاغلب تأثير الهواء والحرّ والبرد والقوت والارض ؛ فان هذه كلها عوامل في تلوين الجلد وتصييره من بياض الى سواد او حمرة او صفرة وبالعكس . ومصداقاً لقولنا تأمل الاوربيين الذين انتزحوا

عن ديارهم وقطنوا في الاقطار الاميركية ، فانهم بعد مضيّ اربعة قرون حصلت لهم صفات الحمر . وفي هذا دليل على ان اللون تابع لمزاج الهواء . قال ابن سينا في ارجوزته :

بالزنج حرٌّ غيّر الاجـادا حتى كـا جلودها سوادا
والصقلب أكتسبت البياضا حتى غدت جلودها بضاضا

فاذا سكن السودان بلاد البيض ، ابيضت الوان اعقابهم على التدريج وتوالي الايام ، وعلى الضدّ فمن يسكن من البيض بلاد السودان ، تسودّ الوان اعقابه على طول المدى وتوالي الزمان . وما زال العلم عاجزًا عن تعليل هـذا التغيُّر . ثم ان النبات العائش في الظلمة لا يتلوَّن الّا عند رؤيته النور . خذ مثلًا خسَّة وغطّها بالحشيش ثم اطمرهـا في الارض ، ترَ بعد مدة خضرتها ذهبت واكتست عوضاً منها بياضاً . وكذلك الامر يحدث لمواليد السودان ، فانهم ساعة ولادتهم وخروجهم من ظلمة البطن ، يكونون اشبه بمواليد البيض ، لولا صُدأة تظهر فيهم اولًا ثم تتغيَّر على التدريج الى حمرة ، فكُهبة ، فسواد . وهذا التغيُّر يتم في بلاد السودان في سنة ، وفي مصر لا يتم الّا بعد ثلاث سنين[1] . وقد جعلت العناية الربانية الانسان قادرًا على سكن كل المناطق ، حارّة كانت او معتدلة او باردة ، بخلاف الحيوان الذي لا يقوى على البقاء في منطقة غير منطقته . فلا ريب اذن في تأثير الجوّ في الابدان . وهاك مثلًا آخر : ان الكلاب والطيور الداجنة في الغينه سوداء ، والضان في الهند الغربية والغينه ايضاً تستبدل صوفهـا بشعر ، وحيوان القطبين يبيضّ في الشتاء ، وعند حلول البرد تبيضّ الارانب في كندة ، ولكن اذا حُبست في اقفاصها بقيت الوانها بلا تغيُّر . ثم ان اليهوديّ اشقر في البلاد الشمالية ، واسمر في البرتوغال ، واسود في بعض جهات افريقية وآسيَّة . وكذلك الاسرة المالكة في بلاد الانكليز الالمانيـة الاصل (١٦٨٨) قد تغيّرت فصارت اليوم شبيهة بالانكليز . والعرب اهل البادية مـا زالوا هيف القامة ، صغار الوجوه ، زعر اللحى ، وعلى الضد المتحضّرون فانهم اسمن منهم ، واوسع وجوهاً ، واكثف شعرًا . ولا تنسَ ايضاً ان الظلم

(١) Moreux : *Op. cit. p. 18*

والعبودية يقرّبان الانسان الى البهيمة ، وان آكلي اللحوم اصفى الوانًا من آكلي الخضراوات . فلله عجائب في خلقه.

وقد يذهب القائلون بتعدّد اصل البشر ، دعمًا لدعواهم ، الى استحالة تمدّن الشعوب المتوحّشة . غير ان دعواهم باطلة بدليل ما يجده مرسلونا الكاثوليك بين المتوحشين من الذكاء وشرف العواطف ، والاستعداد للتمدن . ويبرهنون ايضًا لتصحيح قولهم باختلاف اللغات . على ان تعدّد اللغات لا يدلّ على تعدّد السُلالات ، لان اللغات ما هي الا ضرب من الاصطلاح والاتفاق اللذين هما نتيجة نواميس التقدّم والاجتهاد والمجاورة والمخالطة والنجاح المادّي. ولمّا كانت الكتابة مجهولة في قديم الزمان ، فلا عجب اذا اختلفت اللغات ، وتفرّعت بتفرّع القبائل ، وتباعدت بتباعدها . فاذن كل أعراض الامزجة والاخلاق والاحوال الظاهرة ، مثل استطالة الرأس او قصره ، او نتوء اللحيين والوجنات والاسنان ، وسبوطة الشعر وجعودته ، وبياض الجلد وسواده ، لا تأثير لها في وحدة النوع البشري . ولله درّ كاترفاج اذ قال : « مهما درس الانسان ثبت عنده ان كل عظم من هيكل « الانسان الرباعي » كبيرًا كان او صغيرًا ، يؤدّي شهادة على اصله لا يمكن جحدها ».وقد قال الاب مورو في خاتمة فصله « في وحدة النوع البشري » : « النتيجة ان الانسان في جوهره هو هو في كل الاماكن.وهكذا كان في كل العصور . اذن كل شيء في العلم الحاضر يثبت نصّ التوراة.وقد احسن الرسول اذ قال مخاطبًا الاثينيين الذين كانوا يتبجحون بتمدّن يفضلهم في الظاهر على سائر البشر: وقد صنع الله من واحد جميع امم الناس ليسكنوا على وجه الارض كلها. » (١ ع ١٧ : ٢٦ )

ويجدر بنا الآن ان نردّ على بعض اعتراضات يرجع مجملها الى مصدرين : سرعة انتشار البشر ، وبعض الصعوبات الجغرافية.

١ً — سرعة انتشار البشر . ان طائفة يدّعون قائلين : يستحيل بلوغ البشر هذا العدد الكبير لو كانوا مولودين من رجل وامرأة فقط . ولسنا نرى سببًا للتعجب من انتشار الناس السريع بعد مضي آلاف من السنين لا يعرف احد مقدارها سوى الله.ولا ريب في ان طول الاعمار القديمة ، وصحة التراكيب ،

وقلّة الامراض ، وبساطة المعيشة ساعدت على النمو وكثرة التناسل . واي عجب في ذلك اذا كانت ذرّية الاصل الواحد تبلغ اكثر من عشرين انساً في اربعة قرون ؟ خذ مثلاً بني اسرائيل فانهم دخلوا مصر وهم سبعون نفساً ، وعند خروجهم كانوا نحو مليون ونصف مليون ؛ اذ كان فيهم ستمائة الف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسون مقاتلاً ، فضلاً عن النساء والشيوخ والاطفال والاحداث .

٢ً — الصعوبات الجغرافية . يقول بعضهم من اين اتى سكّان اميركة ، وسكان جزائر البحار الجنوبية ؟ لعلّ الفينيقيين المولعين بخوض البحار قد توصّلوا بسفنهم الى اميركة ، بعد بلوغهم الجزائر الخالدات ، ومادرة ، وجزائر اسور . ومن جملة الشعوب الذين ساعدوا على سكن اميركة الشعوب السكندينافية . فاخبار الاسلنديين تدلّ على انهم اكتشفوا الارض الخضراء اي غرينلندة واللبرادور في الجيل الحادي عشر والثاني عشر ، قبل كولمب بنحو ثلاثة قرون . فضلاً عن اتصال آسية الشمالية باميركة عند مضيق برنغ . فهنالك القارتان متصلتان تقريباً لا يفصلهما سوى مرحلتين فقط . وفي الوسط بالبحر جزيرة ، فعند حلول الشتاء وجمود المياه ينتقل المتوحشون بعيالهم فوق ذلك الجليد في عجلات تجرّها الكلاب ، ويبيتون في الجزيرة ليلتهم ، وفي اليوم الثاني يقطعون الى اميركة .

ثم ان الهنود والصينيين واليابانيين اعطوا اميركة سكاناً منهم ، لان المجرى البارد الخارج من المحيط الجامد بطريق مضيق برنغ يجرّ معه القوارب والزوارق والسفن التائهة في وسط المحيط الهادئ الى اميركة ، وقد روى بنكروفت (Bancroft) انه يوم استوطن البيض كاليفرنية اي من سنة ١٨٥٢ الى ١٨٧٥ قد وصل الى هذه البلاد ٢٨ سفينة اسيوية ، وكان بينها ١٢ فارغة فقط[1] .

ولعلّ هنالك اسباباً اخرى مجهولة . وكما ان البشر قطعوا الى اميركة بالسفن فقد قطعوا الى الجزائر الجنوبية واستوطنوها منذ زمان عريق في القدم . فاذا نظرنا الى تقاليد الشعوب الدينية ، واحوالهم في المعاش ، اضطررنا الى الاقرار بوحدة النوع البشري على كل حال .

---

1) *The Native Races of the Pacific States of North America, New-York, 1875 — 1876, t. V. p. 52.*